معـــنى النـكبة*

تأليف الدكتور قسطنطين زريق

«معنى النكبة» هو كتاب جديد للدكتور قسطنطين زريق وكتاب الدكتور زريق هذا يذكرنا بكتاب سابق له هو وإنما ينزعان إلى رأي واحد كتاب «الوعي القومي». وليس الكتابان في موضوع واحد وفكرة واحدة ، هي الفكرة القومية ، التي يرى فيها الدكتور من دون غيرها فكرة الخلاص للشعوب العربية في جميع أقطارها ومع أن كتاب «معنى النكبة» يقوم على الفكرة القومية إلا أنه كتب عن الوضع الحاضر في فلسطين . وعنوان الكتاب يدل على أن الدكتور يعتقد (ونحن نوافقه) أن ما وقع في فلسطين كان نكبة بكل ما في هذه الكلمة من معنى . بل هو يقول : إنها جاءت « محنة من أشد ما ابتلي به العرب في تاريخهم الطويل على ما فيه من محن ومآس » .

ويتناول الدكتور في كتابه هذا الصغير ، الذي ينشره في وقت ملائم ، مواضع ندل عناوينها بعض الدلالة على ما فيها ؛ فهو يبدأ بالحديث عن « فداحة النكبة » ثم يتحدث في فصل آخر عن «معنى النكبة » في هذا الباب وعن «الحل الأساسي» و « المعالجة القريبة » لدرء هذه النكبة التي حلت بالعرب . وكان المؤلف قد كتب قبل أن ينشر هذا الكتاب فصلين أذاعهما قبل ظهور الكتاب : أحدهما عن « الصراع بين المبدأ والقوة في قضية فلسطين» والآخر عنوانه «لماذا نجاهد في فلسطين»

وأنت تقرأ الكتاب كله فتشعر بميزتين أو ثلاث له ، تبرز بروزاً واضحاً لا غموض فيه : فأما واحدة من هذه الميزات فهي أن الكتاب يعبر تعبيراً تاماً عما يجول في خاطر الناس بعد ما وقع في فلسطين . فالناس بعد هذا الذي وقع تبلبلت أفكارهم وتحيروا ماذا يقولون . وقد عبر المؤلف تعبيراً صادقاً وألم به إلماماً موفقاً . وميزة أخرى للكتاب هي أنه ينظم البحث تنظيما يدل على فكر منظم وعقل مدبر . وقد عرف هذا عن الدكتور زريق في تآليفه ، ويظل ما عرف عنه صحيحاً في هذا الكتاب الصغير . وميزة ثالثة للكتاب نوردها لأننا نتحدث عنه لا لأنها كبيرة الأهمية وهي الوضوح في التعبير ، والجمال الطبيعي في الأسلوب ، والجدة في الأداء ؛ صفات تستهويك حين تطالع فصول الكتاب فتكسبه عند عامة القراء قوة على إبلاغ الرأي الذي يراه المؤلف إلى ذهن القارىء في يسر وإمتاع .

وعند ما يتحدث الدكتور زريق عن « معنى النكبة » التي حلت بالعرب في قضية فلسطين ، يقول شيئاً يجد القارىء العادي صعوبة في إدراكه ، ولكنه صحيح وإن كان مطبوعاً بالطابع النظري المحض . فالدكتور يقول : إن النكبة تقاس بمقدار تأثيرها في نفسية الشعب العربي . فإن هي أرهقت هذه النفسية وشلت قدرتها على الصمود في وجه التعسف والإغراء ، وإن هي مكنت لقوى الرجعية العربية من السيطرة وانهزمت أمام هذه القوى ، وإن هي لم تثر مواطن الضعف ولم تحتفظ بعناصر القوة فقد وقعت كنكبة ، وإن كان الأمر على العكس من ذلك فلم يرهق النفس العربية ولم تشل قدرتها على الصمود في وجه الظلم ولم تهن أمام قوى الرجعية والإغراء ، عادت وكأنها ليست نكبة وإنما كانت مناسبة لتنقية جوهر الأمة العربية وبلورة كيانها . وهذا كله صحيح وإن لم أشعر أن المؤلف الكريم وفق كل مرة إلى وصف الطريقة التي تمكننا من أن نصمد لما حل بنا ، وأن نخرج منه بعبرة للمستقبل بحيث يخرج كما قال « من العسر يسر ومن النكبة بذور ظفر » وسأبين ذلك عن قريب ؛ لأنني أحب في هذه اللحظة أن أتحدث عن أهم ما تناوله الكتاب ، وأهم ما جاء به في نظري هو الحل الذي يراه للنكبة التي وقعت بفلسطين ، وهو يقسم الحل إلى قسمين : أحدهما « المعالجة القريبة » والآخر « الحل الأساسي » وكلا الموضوعين هام تطالعه في شغف وسرعة وهو يرى أن المعالجة القريبة تقوم على أركان خمسة : هي تقوية الإحساس بالخطر ، وتجنيد قوى الأمة الحربية بكاملها ، وتحقيق أكبر قسط من التوحيد الممكن بين الدول العربية في ميادين الحرب والسياسة والاقتصاد وسواها . والركن الرابع هو إشراك القوى الشعبية في النضال ، أي لا يقتصر الجهاد على الحكومات والجيوش النظامية ، والركن الخامس في الجهاد العربي لحفظ فلسطين هو استعداد العرب للمساومة ، وللتضحية ببعض المصالح لدرء الخطر الأكبر

هذه هي الأركان الخمسة عند الدكتور زريق للمعالجة القريبة

(*) التي حلت بفلسطين

لقضية فلسطين ، وهو يشرح كل واحد من هذه الأركان شرحاً وافياً لا مجال للخوض فيه ههنا ، وأنا أثق على كل حال أن القارىء الكريم سيعرف شيئاً من المقصود بهذه الأركان من مجرد ذكر عناوينها ، وذلك لثقافة الناس العامة الآن بقضية فلسطين وبقضايا بلادهم . ولا أتعرض لأى واحد من هذه الأركان اللهم إلا لركن المساومة السياسية هذه ، التي يتحدث عنها الدكتور ، على أساس موجب أشد الوجوب للنقد ، وسأوضح لك ذلك عما قريب .

أما المعالجة البعيدة لقضية فلسطين ، أو الحل الأساسي فيتطلب عند المؤلف «حرباً مديدة الأفق بعيدة الأجل» وتبدلا « أساسياً في الوضع العربي ، وانقلاباً تاماً في أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا بكاملها» إنه يتطلب « كياناً عربياً قومياً متحداً تقدمياً» « وإنشاء هذا الكيان هو الركن الأول للجهاد العربي البعيد » ثم يمضي الأستاذ فيشرح كل واحدة من هذه الصفات التي يجب أن يتصف بها الكيان العربي . وهو يلاحظ أثناء هذا الشرح أن اساليب تفكيرنا ما تزال عتيقة وأننا لا نساير الزمن فنأخذ مما في الحضارات الإنسانية من قيم عقلية وروحية .

ولو أردنا تقريب قسمي الحل لقضية فلسطين من أذهان القارىء الكريم لقلنا إن الدكتور زريق يضع أركاناً خمسة لكل من الحلين القريب والبعيد لقضية فلسطين . ومجموع ما يريد من كلا الحلين يتلخص في خلق أمة عربية على طراز الأمم الغربية . ويشمل ذلك القوة العسكرية والقوة العلمية والخلقية والاقتصادية وبعض هذه القوى يحتاج إنشاؤه إلى زمن طويل . والذى أراه أن أعجل ما يمكن أن يأتي بنتيجة من آراء الدكتور هو ما أسماه « المساومة » فالواقع أن هذا سلاح ماض جداً في أيدى العرب إذا سددوه إلى ناحية أصاب الهدف وأصمى .

فالعرب يشبهون في حالهم السياسي الحاضر وضع اليهود بين حزبي الجمهوريين والديمقراطيين في أميركا أو وضع حزب الأحرار بين حزبي العمال والمحافظين في بريطانيا — إذا مالوا بثقلهم مهما هان شأنه على ناحية من ناحيتي الكتلتين العالميتين اليوم ، رجحت كفته بثقلهم وانتصر على خصمه . وهذا السلاح الماضي لا يقتضي إلا اتفاق الرأى بين العرب في جميع أقطارهم على الناحية التي يرجحونها . وهم غير مضطرين حين يرجحون كفة أن يظلوا على موقفهم زمناً طويلا . بل الواجب يقضي أن يعدلوا موقفهم بحسب الظروف تعديلاً يلائم مصلحتهم كأمة . وهذا السلاح الماضي من أسلحة المعالجة القريبة يستطيع العرب أن يفيدوا منه منذ الآن ، إنه لا يحتاج إلى مثل ما تحتاج إليه الأسلحة الأخرى من استعداد طويل ووقت بعيد ، فني العرب اليوم فئة من الساسة المحنكين الذين يفهمون التيارات السياسية العالمية وما يحمل في طواياها من مغازم قادرون إذا أخلصوا أن يوجهوا شعوبهم معهم إلى الناحية التي يجدون فيها الخير لهم .

وهنا أستطيع أن أوضح لك الخطأ الكبير الذى ارتكبه الدكتور زريق حين تحدث عن أحد أركان المعالجة القريبة وهو « المساومة » ، وحين شرح لقرائه معنى كلمة « تقدمى » التي وصف بها الكيان العربي الذى يريده . قال الدكتور إن الخطر الصهيوني لا يرده إلا كيان عربي قوى متحد تقدمى . وهو حين استعمل هذه الصفة (تقدمى) يقول « إن قوميتنا إذا أرادوا أن يحاربوا الشيوعية حقاً فسبيلهم الوحيد أن تكون قوميتهم محاربة لقوى الزمان (ص ٤٨) فمحاربة الشيوعية عند الدكتور إذن إرادة صميمة يدل الناس على السبيل الوحيد إليها . ولكنه حين تحدث عن أركان الجهاد العربي لحفظ فلسطين تكلم عن استعداد العرب للمساومة مع الدول الأخرى على أساس تبادل المصالح والمنافع . وهذا حق في نظرنا . فإذا أراد أن يبسط معنا للقارىء قال : « لا نحالف مثلا الدول الديموقراطية على الشيوعية ونضطهد الأحزاب اليسارية في بلادنا لوجه الله وجرياً مع الصداقة أو لمجرد التخاذل » إن الاستعداد للمساومة على الحقوق المتبادلة عنصر ها من عناصر الجهاد العربي كما ذكرنا والعرب يفتقرون إلى استخدامه كل الافتقار ، والعالم الآن منقسم إلى قسمين فقط : الديموقراطية والشيوعية . فإذا نفى الدكتور قابلية المساومة مع الشيوعية لأننا يجب أن نحاربها كما سبق ، فلم يبق معنا من طرف نساومه إلا الديموقراطية ، فإذا أدركت الديموقراطية أن المساومة لا تكون إلا معها بكل معنى المساومة وتمنعت الديموقراطية معنا فأخذت منا دون أن نأخذ منها ، وهذا هو السر الأكبر للضعف في موضوع فلسطين في الوقت الحاضر ، والدكتور لا يخلصنا منه ، وإنى أثق أن المؤلف فعل ذلك عن نية حسنة .

وبعد فقد قال الدكتور في مقدمة كتابه « لست أدعى أنى في هذه الدراسة قد « اخترعت البارود » وإنما هي محاولة لتصفية تفكيري في هذه الأزمة الخانقة » . والحق أن الكتاب لابد وأن يكون قد أحدث صفاء في التفكير عند القراء الذين طالعوه في الوقت الذى يجب أن يطالعوه فيه . والفضل في ذلك يعود إلى المؤلف الكريم.